الشك والنقد بين المنهج الخلدوني والديكارتي

هاني محمد عبد الفتاح(*)

«ولا تثقن بما يلقي إليك من ذلك وتأمل الأخبار، واعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك ذلك، ويقع لك تمحيصها بأحسن وجه».

(ابن خلدون: المقدمة)

«ينبغي أن نقصر اهتمامنا على الموضوعات التي يبدو فكرنا قادراً على اكتساب معرفتها اكتساباً يقينياً لا يدخله ريب».

(ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر)

يناقش البحث مشكلة الشك في المنهج الخلدوني والمنهج الديكارتي ، كما ويعقد البحث «مقاربة» و«مقارنة» بين منهج ابن خلدون ومنهج ديكارت في التعامل مع المنتج المعرفي، بداية من الشك المنهجي حتى تأسيس مفردات المنهج على أسس منطقية وعقلية وعلمية سليمة.

وأهم المحاور التي يناقشها البحث هي:

أولا: النظر في علوم السابقين:

ثانيا: الشك المنهجي بين ابن خلدون وديكارت:

ثالثا: أهمية الرياضيات في بناء المنهج:

رابعا: أسس بناء المنهج بين ابن خلدون وديكارت:

خامسا: أسباب الوقوع في الخطأ:

(*) ماجستير في الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب جامعة الفيوم.

لعلنا إذا وضعنا اسم «ابن خلدون» بجوار اسم «ديكارت»، قد يكون الأمر مثيراً للغرابة على نحو ما، إذ أنه قد يتبادر إلى الذهن في أول وهلة من ذكر الاسمين الأسئلة الكثيرة، والاستفهامات المثيرة بتفهم واستيضاح فضولي عن مدى المقاربة بين «ابن خلدون» الرجل المشتهر بالتاريخ، و«ديكارت» الرجل المشتهر بالفلسفة، بيد أننا لكي نبين مدى المقاربة بين منهجي الرجلين، يجب أن لا ننزع عن «ابن خلدون» وهو رجل تاريخ في المقام الأول، ثوبه «الفلسفي النقدي»، ولا أن ننزع أيضا عن «ديكارت» وهو رجل فلسفة في المقام الأول، ثوبه «العقلي النقدي»، وإذا فعلنا ذلك لكشفت لنا هذه المقاربة في المتفق والمختلف بين منهج الرجلين، ولجادت لنا هذه المقاربة بنتائج من الأهمية بمكان ومكانة.

ولسنا في حاجة بتعريف أي من «ابن خلدون» (١٣٣٢ - ١٤٠٦م) أو «ديكارت» (١٥٩٦ - ١٦٥٠م)، فهما أشهر من أن يعرفا. فالأول يعد من أعظم المفكرين في العالم. وقد جاءت شهرته من كونه أول من درس المجتمع البشري بطريقة واقعية، وأول من درس التاريخ بطريقة نقدية خرج بها عن الطريقة الوعظية والسردية التي كانت مسيطرة على الأذهان في العصور القديمة الوسطى. كما والثاني يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»، لأن كثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، كما ويعد رائدا للتيار العقلي الفلسفي في أوائل عصور النهضة والتنوير وحتى اليوم.

ولعلنا نرى منذ البداية أن كلاً من ابن خلدون وديكارت قد عاشا في فترة من متقاربة، يعتبر الفاصل الزمني بينهما لا يزيد عن قرنين من الزمان، فالأول عاش في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، والثاني عاش في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، الأمر الذي يعطينا إشارة إلى أن الباعث من وراء بناء منهج نقدي وعقلي هو عدم تقبل المنطق السائد آنذاك، إذ كان الخطاب الديني والفكر الخرافي هو المسيطر بحكم أنها كانت عصور ظلام، فجاء منهج كل من ابن خلدون وديكارت ثورة نقدية على القديم، بمنهج علمي وعقلي متكامل.

ولعل ما تجود به الملاحظة الأولية أن كلاً من «ابن خلدون» و«ديكارت» قد درسا العلوم الدينية. فابن خلدون قد حفظ القرآن الكريم في صباه، وجوّد بالقراءات السبع، كما أنه كان راسخ القدم في علوم الحديث بمختلف أنواعها، حتى أنه قد عين بمصر أستاذاً للحديث بإحدى مدارسها وكان يدرس فيها موطأ مالك، كما له رسوخ قدم في علم العقائد والفقه المالكي وغيره من العلوم الدينية.

أما ديكارت فهو خريج مدرسة لاهوتية في المقام الأول، تسمي «الآباء اليسوعيين»، تعلم فيها تربيته الروحية الكاملة، حتى أنه وضع كتابه «التأملات» ينافح به عقائد الكافرين، كما كان أستاذه ومعلمة راهبا يدعي الأب «فرانسوا فيرون» وهو رجل صالح تقي بارع في المناقشة.(١) يقول ديكارت: «كنت أجل العلوم الدينية، واطمع كغيري في الجنة».(٢) ويقول أيضا: «كنت أُجل لاهوتنا وأتوق مثل أي سواي إلى كسب السماء»(٣) حتى أنه قدم لكتابه «التأملات» إهداءً كتب فيه إلى العمداء بكلية أصول الدين المقدسة بباريس».

ومن ثم سيتضح لنا أن كلاً من ابن خلدون وديكارت قد اطلعا على الكتب الدينية السابقة لهما ولم يعجبهما أمور كثيرة، من خطأ المنهج ، وخلط أمور كثيرة بطريق الخطأ تارة وبطريق الظن تارة أخرى، فضلا عن عدم بناء نسق واضح الملامح في الوصول إلى المعرفة، الأمر الذي يفسر لنا الباعث من وراء تأسيس منهج نقدي قائم على الشك لنقد المعرفة «السابقة / السالفة» القائمة على المنطق الوعظي والخطابي.

أولا: النظر في علوم السابقين

إن ابن خلدون يعي تماماً المصير الذي آلت إليه كتابة التاريخ بصورته التقليدية، حيث يتم سرد أخبار وحكايات مفصولة عن المضمون الواقعي للأحداث، أي أخبار لا تستند على مواد من صميم التاريخ بقدر ما تستند على إملاءات لا تاريخية. يعود بعضها إلى الولع بالأساطير والخرافة والحكايات الغريبة، وبعضها إلى تشيعات سياسية ومنهجية، أو استجابة لأغراض شخصية حتى تغدو تلك الأخبار، وكل ذلك ناشئ عن إغفال الواقع الاجتماعي المتغير.(٤)

يقول ابن خلدون: «وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ، دار المعارف، ط ٥. ص ٥٨

(٢) ديكارت: مقال في المنهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم محمد مصطفى حلمي الهيئة العامة للكتاب، ط ٣، ١٩٨٥، ص ٨٦.

(٣) ديكارت: حديث الطريقة، ترجمة عمر الشاروني، المنظمة العربية للترجمة، ط١، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٦٠

(٤) من أعمال الندوة الفلسفية الـ ٢٥ بعنوان «مناهج البحث ونظرية المعرفة»، ٢٠١٦، عدد ١٥، ط١، مركز الكتاب للنشر، ص ٥٤.

الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاء وسميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكم النظر والبصيرة، فضلوا عن الحق، وتاهلوا في بيداء الوهم والغلط».[١]

إن ابن خلدون يرى صراحةً أن علوم السابقين ومعارف الأقدمين وقع فيها الخلط والغلط، فلابد إذن بالنظر فيها وعرضها على القواعد لتبين عنها من سمينها، وصحيحها من سقيمها فيقول صراحة بعد عرض بعض نماذج لأخبار ضل كثير من الباحثين قبله فيها، وخالطهم الوهم في معرفتها: «فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأبيات والآراء، وعلقت أفكارهم ونقلها عنهم الكافة من ضعفة النظر، والغفلة عن القياس، وتلقوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا روية، واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهياً مختلطا، وناظره مرتبكاً، وعد من مناحي العامة، فلذا يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بالقواعد [..] حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول فإن وافقها وجرى مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفة واستغنى عنه».[٢]

هذه المعارف السابقة القادمة لدينا من السابقين يجب أن تمحص وتبتلي خير الابتلاء، لأن أغلبها «بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط».[٣]

إن ديكارت له موقف من تجاه علوم السابقين يكاد يكون هو نفسه موقف ابن خلدون، فبعد أن أوجب ديكارت الشك في كل ما هو متاح للشك، تطرق لنقد المعارف القادمة عن طريق السابقين فيقول عن «كتب القدامى»: «على كلٍ توجد بها أخطاء قليلة يتعين الحذر من الوقوع فيها بالفعل، وهي التي من الممكن أن تتسرب إلى أنفسنا بشكل كامل، بالرغم من كل المجهودات والاحتياطات» ويقول أيضاً عنها: «كلما أنساق المؤلفون - بشكل طبيعي في العمى والحماقة، كانوا ضحايا بعض الآراء [..] فما يري أحدهم برأي حتى يثبت الآخر نقيضه بحيث يتعذر علينا أن نعلم بأيها نثق».[٤]

(١) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ٩٢.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ١١٥، ١١٦
(٣) السابق: ص٢٠
(٤) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، مصدر سابق، ص ٣٤

فكتب القدامى بها فائدة عظيمة «كما يقول ديكارت، وتحصل لنا من خلال مطالعتنا لها لمعرفة ما توصل إليه السابقين «بيد أن فيها أخطاء يتعين الحذر من الوقوع فيها بالفعل، وهي التي من الممكن أن تتسرب إلينا رغم كل المجهودات والإحتياطات».[١]

وكأني بابن خلدون وديكارت يشيران إلى قضية معاصرة شائكة، ألا وهي قضية التراث، والمعارف القادمة لدينا من السلف السابقين، بيد أن ابن خلدون يسميها «الأخبار» ويسميها ديكارت «كتب القدامى».

إن كلاً من ابن خلدون وديكارت يريدان منا أن نبني أحكامنا على معارف يقينه، لا يتطرق إليها شك، بعد سلسلة من البحوث والتمحيصات والتدقيقات، يتسلح فيها الباحث الناقد بالموضوعية والروية، إذ يري ابن خلدون أن «القانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان» وليس أمر مستحيلا «وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق والكذب، يوجب برهاني لا مدخل للشك فيه».[٢]

إن إخلاص السلف والسابقين ليس بالضرورة يدل على صدق المعارف القادمة منهم، فتقوى الإنسان وإخلاصه لا يدلان بالضرورة واللزوم على صدق ويقين معرفته واستنباطاته، يقول ديكارت «حتى وإن كان القدامى مخلصين، فإنهم لم يفرضوا علينا أبدًا قبول أشياء مشكوك فيها».[٣]

إنه يرى أننا لا نكون فلاسفة بحق مادمنا غير قادرين على إصدار حكم موثوق به، وأن نكون مجرد قراء لاستدلالات أفلاطون أرسطو، إذ ستكون عندئذ كمن تعلم الأقاصيص لا العلوم فيقول: «لن نصير فلاسفة أبداً بمجرد قراءة كل استدلالات أفلاطون وأرسطو دون أن نكون قادرين على إصدار حكم موثوق به في ما يعرض علينا من مسائل، إذ سنظهر عندها كمن تعلم الأقاصيص لا العلوم».[٤]

---

(١) ديكارت: القواعد، ص ٣٤.

(٢) ابن خلدون: المقدمة: مصدر سابق، ص ١٢٨.

(٣) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، سابق، ص ٣٥.

(٤) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، سابق، ص ٣٥

ثانيا: الشك المنهجي بين ابن خلدون وديكارت

لولا الشك ما كان اليقين، ولولا اليقين ما كانت المعارف، فالشك أول طريق المعرفة الصحيحة والواضحة، لأن الشك يضع المعارف والأخبار تحت مجهر البحث والنقد والتمحيص، فينتخب منها ما أدرك يقيناً أنه كذلك، وهذا هو المعروف بالشك المنهجي.

ولولا شك ابن خلدون في الأخبار والروايات، ما كانت مقدمته الخالدة، فهو يعلن صراحة بقوله «ولا تثقن بما يلقي إليك من ذلك وتأمل الأخبار، واعرضها على القوانين الصحيحة، يقع لك ذلك، ويقع لك تمحيصها بأحسن وجه»[١].

إن ابن خلدون يعي تماماً المصير الذي آلت إليه كتابة التاريخ بصورته التقليدية، حيث يتم سرد أخبار وحكايات مفصولة عن المضمون الواقعي للأحداث، أي أخبار لا تستند على مواد من صميم التاريخ بقدر ما تستند على إملاءات لا تاريخية، يعود بعضها إلى الولع بالأساطير والخرافة والحكايات الغريبة، وبعضها إلى تشيعات سياسية ومنهجية، أو استجابة لأغراض شخصية حتى تغدو تلك الأخبار «صورا تجردت من موادها، وصفاحاً انتضيت من أعمادها - كما يقول ابن خلدون-، وكل ذلك ناشئ عن إغفال الواقع الاجتماعي المتغير».[٢]

هذا يعني أن ابن خلدون يجد أن من اللامنطقي التسليم بكل ما أوردته الأخبار من معارف سالفة، «مهما كانوا ذوي شأن كبير ومنزلة عالية من أحداث ونقلده من معارف وأخبار».[٣]

نلاحظ ذلك الأمر بعينه عند ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، ومؤسس العقلانية فيها، إذ وضع منهجه بداية وانطلاقاً من الشك أيضاً، فيقول في كتابه الذي بعنوان «مقال في المنهج» أي المنهج الدرس اتخذه لنفسه لقيادته إلى المعرفة الصحيحة: «أولاً: ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق ما

(١) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ٩٧.

(٢) من أعمال الندوة الفلسفية الـ ٢٥ بعنوان " مناهج البحث ونظرية المعرفة، ٢٠١٦، عدد ١٥، ط١، مركز الكتاب للنشر، ص ٥٤.

(٣) نمير العاني: ابن خلدون وبدايات التفسير المادي للتاريخ، دار الهمداني، عدن، ط ١، ١٩٨٤، ص ٤٥

لم تبين لي أنه كذلك»[١] ويقول أيضاً: «ينبغي أن نقصر اهتمامنا على الموضوعات التي يبدو فكرنا قادراً على اكتساب معرفتها اكتسابا يقينا لا يدخله ريب»[٢].

فالشك هو الجوهر الذي ساق ديكارت في بناء منهجه، إنه يعلن صراحة أنه يجب على الإنسان أن يشك ولو مرة واحدة في حياته، بعدها أقام فلسفته على ما انتقاه وانتخبه بعد هذه المرحلة.

إن ما يعنيه كلٌ من ابن خلدون وديكارت بالضرورة ليس وصف كل المعارف بالشك والزيف، إنما يعنياه بالأصح هو: أن لا نصف أي شيء بأنه حقيقي ما لم يكن بمقدورنا أن نثبت حقيقة، وحتى يتسنى لنا الاعتماد على دليل صادق وبرهان واضح. يقول ديكارت: «لست أقلد هؤلاء الريبيين الذين لا يشكون إلا لمجرد الشك، ويتظاهرون دوما بالتردد، بل على العكس؛ فإن هدفي لم يتجه إلا إلى الظفر باليقين، والتخلص من الأرض المتحركة والرمال للعثور على الصخرة والصلصال».[٣]

كذلك الأمر عند ابن خلدون، فإن الشك عنده ليس بشك سلبي عقيم، وليس بشك مطلق لا تلبث تنتمي إلى مواقع اللا أدرية، أو إلى مواقع نظرة عجزية عريضة تنفي إمكانية وعي العالم المادي، بل إن شكية ابن خلدون على العكس من ذلك، هي شكية علمية تقوم على أسس وأصول، إذ يرى أنه يجب رد المعارف السابقة والأخبار إلى «الأصول وعرضها على القواعد» مع كل ذلك لابد من «سبرها بمعيار الحكمة».[٤]

فالفكر المتزن لا يشك أبداً في إمكانية معرفة حقيقة الوقائع وإدراك جوهر الأحداث، أنه بالعكس من ذلك تماماً، فهو يجعل من إقراره المطلق واعترافه الكامل وإيمانه العميق بإمكانية معرفة العالم الموضوعي ووعي علاقته الضرورية منطلقاً ومؤسساً بوضع محك واضح يكن للباحث معيارا لتمييز المعقول عن اللامنطقي، معيار يسمع له بفرز الحقيقة عن الوهم. وبالفعل أن هذا المعيار، وذاك المحك يؤكد أن منهج ابن خلدون منهج ناقد يقوم الشك المنهجي الإيجابي.[٥]

---

(١) ديكارت: مقال في المنهج، مرجع سابق، ص١٩٠.

(٢) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة وتقديم، سفيان سعد الله، سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١، ص ٣٠

(٣) ديكارت: حديث الطريقة، مصدر سابق، ص١٤٣

(٤) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ٩٢.

(٥) نمير العاني: ابن خلدون وبدايات التفسير المادي للتاريخ، دار الهمداني، عدن، اليمن،ط١، ١٩٨٤، ص ٤٦.

ثالثا: أهمية الرياضيات في بناء المنهج

لا شيء أوضح من الأحكام الرياضية، فهي واضحة بذاتها، صارمة في أحكامها، وأهميتها في المنهج العلمي ولذلك شغف بها كلٌ من ابن خلدون وديكارت. و إذا كان الشك أول بداية المعرفة الصحيحة، فما بعد الشك لابد أن يقوم على أسس يقينية ثابتة واضحة، ولا شيء أوضح من الرياضيات، يقول ديكارت: «كانت تعجبني الرياضيات على الخصوص وذلك لما في براهينها من الوثاقة والوضوح».[١]

إن الرياضيات لم تستهوي ديكارت فقط ، إنما رأي ابن خلدون أيضا فيها الميزة والوضوح المعرفي عن بقية العلوم، فيقول ابن خلدون: « واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقلة، واستقامة في فكرة، لأن براهينها كلها بنية الانتظام جلية الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها، فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع. وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون: «من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا» وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: «ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار، وينقيه من الأوضار والأدران».[٢]

وقد نجد كلام ديكارت مشابه لكلام ابن خلدون، بل يكاد يكون هو هو بصيغة أخرى، لكلام ابن خلدون في هذا الشأن فيقول: «فكرت فيما جعل مبدعي الفلسفة الأوائل لا يقبلون أي أحدٍ لدراسة الحكمة إن هو كان جاهلاً بالرياضيات، كما لو كان هذا العلم أيسر العلوم، وأكثرها ضرورة لتكوين العقول، وإعدادها لفهم علوم أخرى أرقى منها منزلة...».[٣]

لقد أراد كلٌ من ابن خلدون وديكارت أن يؤسسان بعد مرحلة الشك؛ المعرفة على أسس يقينية واضحة، فلم يجدا أوضح ولا أدق من الرياضيات، كما أن أهميتها لا تقف عند الاعتماد عليها في الوصول إلى معرفة واضحة وحسب، إنما أيضاً ـ كما يري ابن خلدون ـ تفيد دارسها في «إضاءة العقل، واستقامة الفكر، وتقوية القريحة، كما لأن براهينها كلها بينة الترتيب، وجلية

(١) ديكارت: مقال في المنهج، سابق، ص ١٧٠.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق،
(٣) ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، سابق، ص ٤٣.

الانتظام، فيدخل لصاحبه ودارسها عقل ذو بصيرة وانتظام»، فهي ضرورة لتكوين العقول، وإعدادها لفهم علوم أخرى.

حتى أن ابن خلدون يخبرنا أن كثيراً من الأخطاء والمغالط التي وقع فيها المفسرين وأئمة النقل بالخصوص في الغلط والخلط في مسائل «إحصاء الأعداد».[١]

وهذا عن ابن خلدون، أما عن ديكارت فقد أعجب بالرياضيات حداً بالغاً جعلها العلم الذي لابد منه في شرح كل ما نستطيع البحث عنه بشأن النظام والأقيسة، فهي أي «الرياضيات الكلية»، لاحتوائها على كل ما يجعل العلوم الأخرى تعد أجزاء منها، والدليل على ذلك أن الرياضيات الكلية تفوق كل العلوم الأخرى نفعاً ويسراً».[٢])

إن الرياضيات في رأي ديكارت معينة على أن تعالج قضايا معرفية بشكل في غاية من الوضوح والصفاء لأنها الأيسر والأوضح من بين كل العلوم، فيقول: «الحساب والهندسة وحدهما من بين العلوم، الخالية من الخطأ ومن عدم اليقين».[٣] فهما - أي الحساب والهندسة - « الوحيدان اللذان يعالجان موضوعاً على غاية من الصفاء والبساطة [..] إنهما إذاً الأكثر يسراً، والأشد جلاء من بين كل العلوم».[٤]

ومن الجدير بالذكر أن طريقة تأليف ابن خلدون لمقدمته فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التي يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة في عرض نظرياتهم، فهو يضع عنواناً لكل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة الأفكار التي انتهى إليها كما يفعل علماء الهندسة المحدثون، إذ يجعلون نص النظرية نفسه عنواناً للفصل، ثم يأخذ في بيان الحقائق التي استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة[٥] الأمر الذي يفسر تأثره بالرياضيات حتى في طريقة عرضه وتأليفه

(١) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص ٩٢.
(٢) ديكارت: قواعد التوجيه الفكر، ص ٤٥، ٤٦.
(٣) ديكارت: القواعد، ص ٣٢.
(٤) نفس المصدر، ص ٣٣.
(٥) علي عبد الواحد واقي: تقديم لمقدمة ابن خلدون، دار النهضة مصر، ط ٧، ٢٠١٤، ص ١٢٠.

رابعا: أسس بناء المنهج بين ابن خلدون وديكارت

أ- أسس بناء المنهج الخلدوني:

عندما نستعرض مقدمة ابن خلدون نجد أنفسنا أمام عمل عظيم، أمام بناء فريد شامخ، وطيد البنيان، محكم الأركان، فالأفكار غزيرة منسقة، تسير في تسلسل منطقي، فبعد مقدمته وتمهيده يشرع في مقدمة في المنهج العلمي، يبيد فيها ما يحتاج إليه الباحث في التاريخ على وجه الخصوص والباحث في أي علم على درجة العموم، والسبيل الذي يجب عليه أن يسلكه، حتى يقي نفسه من الزلل والحَيد عن جادة الصدق وأولى هذه الأسس.[١]

ولأن علم الأخبار قد طغى عليه أسلوب «المعرفة الروائية»، وهو أسلوب يجعل من المؤرخ مجرد ناقل للأخبار دون الوقوف على مضامينها الاجتماعية والحضارية مما يسلب المؤرخ إمكانية بناء معرفة مستقلة عن مناهج الكتابة المحددة بمسطرة أخرى غير مسطرة التاريخ، ولأنه قد طغت سلطة الخبر الديني المؤسسة على منهج الإسناد، ومن ثم بدأ مشروع ابن خلدون التاريخي كما عرضته المقدمة لحظة انعطاف نقدية، تكاد تنقطع عن فضاء الخطاب التاريخي في معناه التقليدي.[٢]

في حين أن كتابة التاريخ صارت بواسطة النقد الخلودني تقوم على «تحكم النظر والبصيرة في الأخبار» وذلك عن طريق «ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد»[٣].

ومن هنا تبدأ عمة ابن خلدون، وهي مهمة ذات طابع تأسيسي، تهدف لتأسيس مرجعية معرفية من خلال منهج وضع قواعده وحدوده. ومن أهم هذه القواعد والأسس:

١- التشكك::

لقد ورث ابن خلدون ميراثاً من الشك العقلي، خلفه له اثنان من كبار أئمة المسلمين، وهما أبو حامد الغزالي، وابن تيمية، فأما الغزالي فقد شك في قدرة العقلي على إدراك الحق وأنه - أي

(١) حسن الساعاتي: المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، بحث مقدم المهرجان ابن خلدون، ١٩٦٢، ص٣٩.

(٢) من أعمال الندوة الفلسفية الـ ٢٥ بعنوان " مناهج البحث ونظرية المعرفة، ٢٠١٦، عدد ١٥، ط١، مركز الكتاب للنشر، ص ٦٧.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣.

إدراك العقل - معرض للخطة كالإدراك الحسي تماماً، أما ابن تيمية فقد شك في صحة الكليات العقلية العامة التي كان المناطق يجعلوا منها مقدمات لاقيتم المنطقية وأنها أمور نسبية يختلف الناس في تقديرها.(١)

هذا فضلاً عما ورثه ابن خلدون في مجال علم الحديث من طرق التثبيت من صحة ما يروي حتى أنه قال: «إن العمل - أي بالحديث - إنما وجبه بما (يغلب على الظن) صدقه من أخبار رسول الله ﷺ».(٢)

وكان لهذا الأساس - أي التشكك - موضحاً في منهجية ابن خلدون التواقة دائماً إلى الكشف عن السبب في حدوث أيه ظاهرة وعدم الاكتفاء بالإشارة إليها أو القناعة بمجرد وصفها، فتراه تنقص أسباب الكذب في الروايات والأخبار، ويشرحها ويحللها [..] وقد أجرى ابن خلدون على إثر ذلك تحقيقات على جانب كبير من الأهمية كما فيها من أصالة في التفكير، والبراعة في الاستدلال المنطقي».(٣)

كل ذلك يؤكد أن منهج ابن خلدون هو منهج «نقدي عقلاني منطقي» يقوم على الشك المنهجي الإيجابي، وفي هذا سمة بارزة لمنهج كاتب المقدمة، هذه السمة التي تدفع بهذا المفكر العملاق إلى مواقع الريادة في محاولة لتجاوز منهجية لقرون الوسطى المدرسية.(٤)

الأمر الذي يشير لنا بقوة إلى أن شكية ابن خلدون «الإيجابية النقدية العقلانية» قد سبق بها ابن خلدون وغيره من مفكري الإسلام فلاسفةً ومفكري الغرب وعلى رأسهم ديكارت الذي آلى على نفسه، حينما أخذ على عاتقه مهمة وضع أسس العلم، وأن يشك في صدق جميع الآراء التي سبق أن تلقاها عن الآخرين بقوله: «يحتاج الإنسان أن يضع الأشياء حيث موضع الشك بقدر الإمكان ولو مرة واحدة في حياته».(٥) يقول في كتابه «القواعده: «ينبغي في الموضوعات المقترح دراستها، أن نبحث فيما نستنتجه في يقين لا أن نبحث فيما فكر فيه الآخرون».(٦)

---

(١) حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٩١.
(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص.
(٣) حسن الساعاتي: علم الاجتماع الخلدوني، ص ٩٢.
(٤) نمير العاني: ابن خلدون وبدايات التفسير المادي للتاريخ، ص ٤٦، ٤٧.
(٥) ديكارت: مبادئ الفلسفة، ص ٥٣.
(٦) ديكارت: القواعد، ص ٣٤ القاعدة الثالثة.

لقد أصر ديكارت على استخدام المعاني التي ألت إليه تحت النظر العقلي بطريقة علمية، وابن خلدون لم يكن بأقل منه إصرارا، بل يؤكد ذلك بخصوص المغالط الكثيرة عن تاريخ الدول وأحوالها، فيقول «فقد زلت أقدام كثير من الأثبات والمؤرخين الحفاظ في مثل هذه الأحاديث والأراء، علقت بأفكارهم، ونقلها عنهم الكافة من ضَعَفة النظر، والغَفَلة عن القياس، ونقلوها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا روية، واندرجت في محفوظاتهم، حتى صار فن التاريخ داهياً مختلط، وناصره مرتبكاً».[١]

٢- التأمل والاستقراء:

لقد تأمل ابن خلدون كثيراً في أحوال المجتمعات، وتحول الحياة الاجتماعية على مر الزمن، ومكنه ذلك من استقراء قوانين كثيرة، وكثير منها على جانب كبي من الأهمية، فهو يقرر أن الباحث محتاج إلى «حسن النظر» كما وينصح كثيراً إلى تحكم «النظر والبصيرة في الأخبار» ويضيف إلى ذلك قوله « أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضاً لا يعتد به، وما لا يمكن، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب، بوجه برهاني، لا مدخل للشك فيه»[٢].

ويرى أيضاً أن نتأمل واستقراء ومعرفة أحوال المجتمع وواقعه، لأننا لو استقرءنا ذلك «علمنا ما نحكم بقبوله مما أحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون» طريق الصدق والصواب[٣].

إن هذا الأساس أو هذه القاعدة، تكاد ترى مثلها عند ديكارت في كتاب القواعد في القاعدة الخامسة إذ يقول: «تتمثل الطريقة كلها في تنظيم الأشياء التي نريد أن يتفحصها الفكر لاكتشاف بعض الحقائق وترتيبها ونحن سنتبعها بدقة إذا أرجعنا القضايا المعقدة الغامضة بصفة تدريجية إلى قضايا أبسط منها، ثم نسعى إلى الارتقاء وفق نفس التدرج إلى معرفة كل القضايا الأخرى».[٤]

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ضبط الأستاذ خليل شحاته، مراجعة: سبيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص ٣٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٩.

(٤) ديكارت: القواعد، ص ٤٧.

فإذا جئنا إلى تطبيق منهجية ابن خلدون في الاستقراء والتأمل والتتبع وجدنا أنه ضرب أمثلة كثيرة من الاستقراءات والتتبعات العقلية النابعة عن التأمل العقلي والنقدي العميق والمنطق العقلي المستقيم، فمثلاً نرى فيما بلغ فيه ابن خلدون مبلغ الذروة في التأمل والاستقراء عندما بين أن لا فرق في الذكاء بين البدوي والحضري، إنما الفرق في التحصيل، نجد أنه تتبع هذه الظاهرة، وانتقل فيها من البسيط إلى الغامض أو من المعلوم إلى المجهول، ومن البديهي على ما ليس بديهي فيقول: «ألا ترى أن أهل الحضر مع أهل البدو كيف نجد الحضري متحلياً بالذكاء، فمثلاً من الكيس، حتى إن البدوي ليظن أنه قد فاته في حقيقة إنسانية وعقله؟ وليس كذلك وما ذلك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية، مما لا يعرفه البدوي، فلما مثلاً الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الممتلكات أنها لكمال في عقله، وأن نفوس أهل البدو وقاصرة بنظرتها وجبلتها عن فطرته وليس كذلك فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته، إنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم».[١]

٣- التحقيق العقلي:

يتجلى التحقيق العقلي في مقدمة ابن خلدون في مواضع كثيرة ولعل أبرزها ما جاء في المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلمام لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها، حتى أنه قد استغرق في تلك التحقيقات في مقدمته ما يقرب من أربع وعشرين صفحة اشتملت على عدة تحقيقات على جانب كبير من الأهمية لما فيها من الأصالة في التفكير والبراعة في التدليل.[٢]

وقد كان قانون ابن خلدون في هذه التحقيقات يلجأ إلى الاستدلال المنطقي الخالص إن كان لي الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق الدليل العقلي، و إلى التعليل بحقائق العلوم الطبيعية أو علم النفس إن كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق هذه الحقائق[٣] فيقول: « فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، مميزاً بين طبيعة

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٣٣، ٤٣٤.

(٢) حسن الساعاتي: المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، ص ٤٦.

(٣) على عبد الواحد واقي: تقديم المقدمة ابن خلدون، دار النهضة مصر، ط ٧، ٢٠١٤، ص ١٢٠.

الممكن والممتنع «بصريح عقله، ومستقيم فطرته»، فما دخل في إمكان، قبله، وما خرج عنه، رفضه»[١].

إن هذا النص يوضح لنا بجلاء المنهج الذي اتبعه ابن خلدون لنقد التاريخ نقد عقلياً محضاً وبصرف النظر عن ناقلة بل إن العقل والمشاهدة كفيلة برفضه وقبوله.

ب- أسس بناء المنهج الديكارتي:

وضع ديكارت منهجه العلمي/النقدي الذي وضعه بأنه الطريقة التي اتبعها واتخذها لنفسه، وحتى يستطيع أن يحكم فيها آراءه والذي عده وسيلة جديدة للتعليم أضافها إلى ما يستعين به من وسائل. ومن ثم اعتمد ديكارت على أربعة نقاط هي بمثابة ملامح المنهج الديكارتي هي (البداهة - التحليل - التركيب - الإحصاء والمراجعة).

وإذا أردنا أن نستشف منهج ديكارت النقدي، نجده وضعه في قواعد وأسس في مقولة منظمة تنظيماً منطقياً لا يكاد يختلف عن القواعد التي اتخذها ابن خلدون أسسا لمنهجه.

١- التشكك:

إن الحذر والخشية من الوقوع في الخطأ في الأحكام دعا ديكارت لوضع المنهج كما دعا ابن خلدون من قبل، ولذا حصل ديكارت على الاجتهاد في وضع قواعد منهجه فيقول: «فقد أكون مخدوعاً، وقد لا يكون إلا قليلا من النحاس والزجاج ذلك الذي اعتبره ذهباً وماساً فإنني لأعلم مبلغ الخطأ الذي نحن عرضه له فيما يمسنا من الأمور. ومبلغ الحذر الذي يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعاً له [..]، ولكني سأجتهد أن أبين ما هي الطرق التي تبعتها، وحتى يكون وسيلة جديدة، أضيفها إلى ما اعتدت أن أستعين به بين الوسائل».[٢]

إن الشك عند ديكارت مشهور شهرة رديفة باسمة، فما من دارس للفلسفة إذا ذكرت له اسم ديكارت إلا وأعقب مقولته «أنا أشك، إذن أنا موجود» فالشك أصل من أصول الفلسفة الديكارتية، وأساس من أسس منهجية، حتى أنه قال في مبادئ فلسفته: «يجب على الإنسان أن يشك ولو مرة واحدة في حياته».

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص ٢٢٨

(٢) ديكارت: مقال في المنهج، سابق، ص ١٦٤، ١٦٥.

٢- الوضوح واليقين:

فإذا أردنا أن نلخص المنهج الديكارتي في كلمات ونقاط موجزة كانت هذه العناصر هي «الوضوح والجلاء وانتقاء الشك والشبهات حتى حصول اليقين» لذا كان من الطبيعي أن يبدأ ديكارت بالتشكك في المعارف الموروثة حتى يعمل لها عملية غربية وانتخاب وانتقاء لما هو يقيني عما هو غامض هذا الوضوح لن يسلكه ديكارت إلا بطريق التشكك والانتقاء بعد الشك، إذن فالشك عند ديكارت عملية للوصول إلى اليقين، وهذا اليقين لابد أن يكون من الوضوح بمكانة، فأول ما اشترط ديكارت في قواعد منهجه هو الوضوح والتميز فيقول: «لا أقبل شيئاً على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك «بحيث لا يكون لدى أي مجال لوضعه موضع الشك».[١]

فيقول ابن خلدون: «فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، مميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع «بصريح عقله، ومستقيم فطرته».[٢]

٣ - التحليل:

وبها ينبغي أن تقسم المعضلة التي تدرس إلى أجزاء بسيطة على بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة إلى عليها على خير الوجوه، فيقول: «أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأخبرها إلى أجزاء على قدر المستطاع وعلى قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجود».[٣]

٤ - التأليف والتركيب:

ويعبر عنها بقوله «أن أسير أفكاري بنظام بادئاً بأبسط الأمور وأسهلها معرفة، كي أتدرج قليلاً قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها الأخرى بالطبع»[٤].

٥ - الاستقراء والتحقيق:

ويعبر عنها بقوله: «أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً»[٥].

---

(١) ديكارت: مقال عن المنهج، مصدر سابق، ص ١٩٠، ١٩١.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص ٢٢٨
(٣) ديكارت: مقال عن المنهج، مصدر سابق، ص ١٩١.
(٤) السابق، ص ١٩١، ١٩٢.
(٥) السابق، ص ١٩٢.

نلاحظ أن: الملامح العامة للمنهج الديكارتي تشبه الملامح العامة لمنهج ابن خلدون في أمور منها:

أولا: قيامهما على النظر والتمحيص والتشكك في المعارف الموروثة، وسحب الثقة من ما آل إلينا من معارف وأخبار حتى يتبين لنا صحته بعد ابتلائه وتفحصه وتمحيصه.

ثانيا: النقدية الواضحة، البناءة التي تظهر الجانب المظلم فتتركه وتحذر منه، وتظهر الجانب المضيء فتأخذه وتؤكد عليه.

ثالثا: تأسيس المعايير على بناء المنطق والعقلانية، ونبذ الخرافة والشعوذة من أن تتسرب إلى حقل البحث العلمي.

رابعا: ممارسة بعض أدوات ووسائل المنهج العلمي من استقراء وتحليل وتركيب وإجراء التحقيقات التي ترمي إلى التأكيد على قيام المنهج على تحكيم البحث الواقعي والأدوات العلمية في البحث.

خامسا: أسباب الوقوع في الخطأ

أ- أسباب الوقوع في الخطأ عند ابن خلدون:

١- عدم التزود بالعلم الكافي في المسألة المراد بحثها:

إن التزود بالعلم قاعدة عامة وأساسية للبحث في أي فرع من فروع المعرفة والباحث في نظر ابن خلدون يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المذلات والمغالط.

فابن خلدون حين يشير إلى ضرورة التزود بالعلم كعملية إعداد قبل الخوض في موضوع البحث نفسه، يضرب لنا المثل على ذلك بنفسه، فهو لم يتم هذا العمل الخالد إلا بعد أن تزود بالعلم، واطلع على الآثار الفكرية التي خلفها كبار المؤرخين القدامى. ولولا ذلك ما تسنه له إنشاء ما أنشأ من علم جديد، استلهم أفكاره من بين أحضان التاريخ، فجأة كتابة فذا بما ضمنه من العلوم الغريبة، والحكم المحجوبة القريبة.[(١)]

---

(١) حسن الساعاتي: بحث بعنوان "المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون" قدم لمهرجان ابن خلدون المنعقد في=

٢- التسرع في إصدار الأحكام:

فقد يلم الإنسان بالمعرفة عن الموضوع المراد بحثه، لكنه قد يتسرع في إصدار حكم دون تريث أو روية فيقع بذلك في المغالط، يقول ابن خلدون: «فربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضيين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها، فيجريها لأول وهلة على ما عرف، ويقيسها بما شهد، وقد يكون الفرق بينهما كثيرا، فيقع في الهوة والغلط».[١]

٣ - الثقة الكاملة في معارف السابقين:

ومن ثم كان داعي التشكك في هذه المعارف فإن هذه المعارف يعتريها الخطأ والزلل وبالأخص في مسائل التاريخ للأسباب الآتية:

أ- التأسي بالقوم.

ب- ولوع النفس بالغرائب.

جـ- سهولة التجاوز على اللسان.

د - المحاكاة.

هـ- التشيعات للآراء والمذاهب.

و - الثقة بالناقلين.

ز - الذهول عن المقاصة.

ح - الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.

ط - تقرب الناس لأصحاب المراتب.

ي - الجعل بطبائع الأحوال في العمران.[٢]

إننا نلاحظ أن ابن خلدون يهتم بالأحكام المعرفية والمنهجية عامة ، وبالأخطاء في

= القاهرة ١٩٦٢، ونشر مع مقدمة ابن خلدون بتحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤٠.

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٧

(٢) حسن الساعاتي: المنهج العلمي في مقدمة ابن خلدون، ص٤١

الأحكام الخاصة بعلم التاريخ وعلم العمران البشري على الخاص، إلا أننا لا نعدم أن في هذه الملاحظات وهذه الأمور التي يقع الباحث فيها في الخطأ، قد تكون بمثابة قاعدة بحثية منطقية تعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ في الأحكام المعرفية.

٤- التعميم:

اعتمد ابن خلدون اعتماداً أساسية على الاستقراء في تقريراته ومبادئه التي توصل إليها في العمران البشري. ولما كان الباحث لا يستقرئ جميع الحالات فإنه لابد من التحفظ عند التعميم في الأحكام، لأن نتائج الاستقراء الناقص ليست يقينية و إن كانت قريبة من اليقين، وقد أدرك ابن خلدون ذلك وكان يحتاط عند صياغة قوانينه، لأنه يعلم تماماً أنها قوانين احتمالية أو ترجيحية، ولذلك استخدم كثيراً في قوانينه كلمات: «من الغالب» و«في الغالب» و«غالبان».[١]

ب- أسباب الوقوع في الخطأ عند ديكارت:

١- التهور في إصدار الأحكام:

إن من أسباب الوقوع في الأخطاء التهور في إصدار الأحكام، والتسرع في تقدير القضايا المطروحة، ومن ثم حاول ديكارت أن يتلافى هذا الخطأ فقال: « أتجنب بعناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر».[٢]، فالسبق إلى الحكم قبل النظر في نظر ديكارت هو أول مصادر الخطأ، و يقصد به أن يكون للمرء في بعض المسائل أحكام منذ الطفولة يأخذ بها قبل فحصها بعقله المستقل.[٣] و يقول أيضا: «يمثل «التسرع» والظن أخطر ما يخشاه الإنسان».[٤]

٢- عدم الاحتياط من المعارف التي تأتينا من كتب السابقين:

«فكتب القدامى بها فائدة عظيمة» كما يقول، وتحصل لنا من خلال مطالعتنا لها لمعرفة ما توصل إليه السابقين «بيد أن فيها أخطاء يتعين الحذر من الوقوع فيها بالفعل، وهي التي من الممكن أن تتسرب إلينا رغم كل المجهودات والإحتياطات».[٥]

---

(١) السابق، ص ٤٥.

(٢) ديكارت: المقال، ص ١٩١.

(٣) ديكارت: المقال، ص ١٩١ الهامش.

(٤) ديكارت: حديث الطريقة، مصدر سابق، ١١٢

(٥) ديكارت: القواعد، ص ٣٤.

وقد انساق المؤلفون بشكل طبيعي في العمى والحماقة وكانوا ضحايا بعض الآراء[١] بسبب عدم الحذر والاحتياط من هذا الخطأ.

٣- اعتماد الأحكام على الظن والتخمين:

فالعلم يقوم على الحقائق والمسلمات، وليس على الظنون والتخمينات، «فيتعين علينا أن لا نشوب البتة أحكامنا التي نحملها حول حقيقة الأشياء وبأي تخمين وليس لهذا التحذير على قدر ضئيل من الأهمية إذ أن السبب الحقيقي الذي بمقتضاه لا نجد البتة [في كثير من العلوم] أمراً ينطوي على ما يكفي من الوضوح واليقين».[٢]

فقد وقع البعض في «إثبات أشياء غامضة، مجهولة، لم يتوصلوا إليها إلا بتخمينات محتملة، ثم اعتقدوا في صحتها تدريجياً اعتقاداً كلياً ومزجوها دون تمييز بالأشياء الحقيقية البديهية»[٣] فما استطاعوا بعدها أن يتوصلوا إلى أحكام صادقة. لذا كان من أخطر الأخطاء التي يقع فيها الباحثون في مناهجهم الظن وعدم التيقن، يقول ديكارت «يمثل التسرع و«الظن» أخطر ما يخشاه الإنسان».[٤]

وفي ذلك يقول ديكارت أيضا في القاعدة الثالثة في كتابه القواعد: «ينبغي في الموضوعات المقترح درسها، أن نبحث فيما نستطيع أن نحصل عليه في وضوح وبداهة، أو ما نستطيع أن نستنتجه في يقين، لا أن نبحث فيما فكر فيه الآخرون».

٤- عدم وضح منهجية محددة:

لقد صاغ ديكارت في كتابه «قواعد لتوجيه الفكر» قاعدة بعنوان: «الطريقة ضرورية في البحث عن الحقيقة»[٥]، ومن ثم رأي أن من الأخطاء في، هو عدم وضع طريقة واضحة في البحث، تكون بمثابة دستور يحكم الإنسان عن الخطأ والزلل، فكثيراً من الناس « قد يتملكهم فضول أعمى، وغالباً ما يزجون بعقولهم في مسالك مجهولة [..] فهم يخاطرون بأنفسهم من أجل

(١) ديكارت: القواعد، ص ٣٤.
(٢) ديكارت: القواعد، ص ٣٥.
(٣) ديكارت: القواعد، ص ٣٦.
(٤) ديكارت: حديث الطريقة، مصدر سابق، ١١٢
(٥) ديكارت: القواعد، ص ٣٩.

العثور على ما يبحثون عنه فحسب مثلهم في ذلك مثل إنسان يتحرق للعثور على كنز، فيهيم على وجهه لعله يعثر صدفه على شيء».[١]

فهؤلاء الذين لا يتبعون منهج محدد على قدر من الوضوح والتميز، بالرغم من مصادفتهم بعض الحقائق، غير أني لا أنفي عنهم أخطائهم « فليس البحث في الحقيقة بأفضل من البحث عنها دون طريقة».[٢]، كما لا يعني ديكارت بالطريقة أو المنهج سوى «جملة قواعد يقينية سهلة تعصم كل من يراعيها بصرامة، من حمل الخطأ محمل الصواب».[٣]

٥- عدم التزود بالمعرفة الكافية بشأن الموضوع المراد بحثه:

فيقول ديكارت في كتابه «مبادئ الفلسفة» تحت فقرة بعنوان: «في أننا لا نخطئ إلا حين نحكم على شيء لم يعرف لنا معرفة كافية» يقول: «لكن الذي يجعلنا نخطئ عادة هو أننا نحكم غالباً دون أو تتوافر لدينا معرفة دقيقة بما نحكم عليه».[٤] إن الجهل بالمسألة المراد بحثها، أو نقص المعلومات عنها، أو عدم وضوح الرؤية من جوانبها التي تجعلني أتصورها تصورا تاما يوقع الباحث في معرفة غير واضحة مما يجعله عرضة للأحكام للزلل والأحكام الفاسدة، كما يقول ديكارت أيضاً: «أننا لا نستطيع إلا أن نحكم حكماً فاسداً على ما لا ندركه إدراكاً واضحاً».[٥]

٦- المعارف المبتسرة التي اكتسبناها في مقتبل عمرنا:

لأننا كنا في فترة طفولتنا «لا نهتم إلا بما يثير فيها انطباعات حسية، فكانت تحس بالألم عندما يتأذي الجسم منه، أو اللذة عندما يقع لها شيئاً نافع للجسم [..] وإنها تبعاً كذلك يمكن أن تكون أدنى إلى الزيف منها إلى الحق».[٦] أيضاً أننا لا نستطيع نسيان هذه المعارف المبتسرة بسهولة «فإننا على الرغم من ملاحظتنا أن الأحكام التي أطلقناها في طفولتنا مملوءة بالخطأ فإننا مع ذلك نجد بعض المشقة في التخلص منها تخلصاً تاماً».[٧]

---

(١) ديكارت: القواعد، ص ٣٩.

(٢) ديكارت: القواعد، ص ٣٩.

(٣) ديكارت: القواعد، ص ٤٠.

(٤) ديكارت: مبادئ الفلسفة، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ص ٧٦.

(٥) ديكارت: المصدر السابق، ص ٨٣.

(٦) السابق، ص١٠٤

(٧) السابق، ص ١٧٠.

٧- أن ذهننا يعتريه التعب من إطالة الانتباه إلى جميع الأشياء التي تحكم عليها:

فأيضاً لما كانت نفوسنا لا تستطيع أن تطيل النظر إلى شيء واحد بانتباه - دون أن يعتريه التعب والألم - فإنه ما من شيء يشق عليها أكثر مما تشق عليها الأشياء العقلية المحضة التي لا تكون حاضرة أمام الحواس «فلا غرابة في أن معظم الناس لا يدركون الأشياء إلا مشوشة تشويشاً شديداً، نظراً لأن قليلين منهم يعرفون السبيل إلى قيادة العقل قيادة صحيحة».[١]

٨- عدم تحديد المفاهيم تحديداً دقيقاً:

إننا نربط أفكارنا بالألفاظ، وينشأ الخطأ عندما لا تعبر الألفاظ عن الأفكار تعبيراً دقيقاً، «ولأننا يتذكر الكلام أكثر مما نتذكر الأشياء التي يدل عليها بالألفاظ ومن هنا كان أكثر الناس يوجهون نظرهم إلى الألفاظ أكثر من الأشياء، وهذا يؤدي غالباً إلى الموافقة على ألفاظ لا يفهمونها ولا يشغلون أنفسهم بفهمها».[٢]

وبالتالي فليس صدق الخبر أو كذبه تابعاً لصدق أو كذب المخبر به بل لمدى مطابقته للواقع المخبر عنه، وبالمقابل، فإن عدم إمكان المطابقة هذه يكفي وحدة لرد الجنود الحكم على زيفه وبطلانه.[٣]، إنما هناك أمور قد تعتور المنهج من جوانب أخرى غامضة، قد يقع فيها الباحث في إطار التأسيس المعرفي.

ومن هنا تبدأ مهمة ابن خلدون، وهي مهمة ذات طابع تأسيسي، تهدف لتأسيس مرجعية معرفية من خلال منهج وضع قواعده وحدوده. فيعتبر حقاً العمل الخلدوني «ثورة معرفية حقيقية» في مجال التنظير العلمي لكتابة التاريخ.[٤]

تعقيب:

لسنا هنا - بالتأكيد - لنهرول مسرعين إلى الحكم أو الذهاب إلى أن ديكارت قد أخذ منهجيته من ابن خلدون، أو حتى تأثر به واستفاد منه، كلا، إن هذا الحكم سوف نتركه

(١) السابق، ص ١٠٥.
(٢) السابق، ص ١٠٦.
(٣) بلعالية دومة: التنوير المنهجي في كتابة التاريخ عند ابن خلدون، سابق، ص ٥٦.
(٤) السابق، ص ٦٠.

للتاريخ، فهو الذي أعلم بما حدث فيه وجري، فليس بين أيدينا أي مصدر لمعلومة واحدة تقول بأن ديكارت قد قرأ مقدمة ابن خلدون، أو اطلع عليها، أو حتى علم بها.. وليس هذا هو الموقف الذي نريد أن نبديه من خلاصة بحثنا هذا، وإنما الذي نريد أن نبديه هنا هي تلك المقاربة المعرفية بين منهجين اتسما بسلطة العقل والمنطق فوق سلطة الكهنوت الفقهي/ الكنسي.

إن كلا الرجلان قد عاشا في فترة زمنية كانت فارقة بالنسبة لثقافة أمة كل واحد منهما على حدة، بيد أن كل منهما قد اتخذ لنفسه منهج يقوم عناصره ومفرداته على المعرفة النقدية، ينشد كل واحد منهما المستقبل العلمي.

إن ديكارت قد أُعتبر أبو الفلسفة الحديثة، وعد أنه الفيلسوف الأول بالمعني الكامل في العصر الحديث، تلقفته العقول بعده بالقبول والاحترام، بفضل منهجه ومنطقيته، بينما على الطرف الآخر نجد أن ابن خلدون آخر فيلسوف إسلامي، انقطع بعده الوحي الفلسفي، وكأن الأمة قد تلقفت الوحي الفلسفي بالرفض والإباء، كما رفضت قريش الوحي الإلهي. ولعله كما قالت «ناجية الوريمي» أن النص الخلدوني: «من النصوص القليلة التي نجحت في الانفلات من تاريخيتها والتحقت بهذه الأطروحات المعاصرة».[١]

لقد صار البحث التاريخي مع ابن خلدون في وضع محوري، بفضل المضامين الجديد لمفهوم وحقيقة التاريخ، الأمر الذي منحه القدرة على تجاوز الإكراهات النصية للخطاب المعرفي التقليدي، التي ظلت تؤطر التاريخ ضمن دائرة «نظرية الخبر» باعتبارها نظرية تدوم البحث عن صحة الخبر بالاعتماد على معيار أخلاقي أكثر مما هو معرفي، ذلك المعيار هو «الثقة بالناقلين» فبقدر ما يكون ناقلو الخبر ممن يشهد لهم بالعدالة والضبط بقدر ما يكون الخبر المنقول عنهم غير صادقاً، وصدق الخبر هنا ليس صدقاً بالمعني المنطقي، ولا بالمعنى المطابق للواقع، بل بمعنى «صحة» «نقل الخبر».[٢]

لقد كان عصر النهضة على الجغرافية الأوروبية بداية ثقة جديدة في مقدرة الإنسان وعقله

(١) ناجية الوريمي: حفريات من الخطاب الخلدوني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٥، ص١٥

(٢) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، سلسلة نقد العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٥، بيروت، ١٩٩٦، ص ١١٦.

في استطاعته أن يشق طريقه نحو التقدم، على الجانب الآخر من هذا العصر في الجغرافية الإسلامية نجد أنه كان بداية لفقد الثقة في مقدرة العقل الإنساني في أن يسلك سبيله للخروج من بوتقة الأزمة المعرفية آنذاك.

لقد كانت محاولات ابن خلدون محاولات جادة في صميم تأسيس بناء منهج معرفي في العلوم لا يقبل من المعارف إلا ما أقام عليها البرهان القوي، والحجة الواضحة، إضافة إلا نقد المعارف السابقة/ السالفة لنا، وعدم قبولها دون نظر وتمحيص وتدقيق من إنتاجيات قد شابها الخلط والوهم، فبعدت عن المنهج العلمي الذي ينبغي أن تبني عليه المعرفة الصحيحة.

إن الفكرة لكي تحيا وتستمر وتسلك طريقها نحو النور يجب أن يتلقها الواحد تلو الواحد، والآخر تلو الآخر، فيتعهدها بالعناية والدراية ويزيدها نورا على نورها حتى تستطيع أن تنفذ نحو التاريخ التحقق، ولقد أراد ابن خلدون أن يرفع شعلة الخطاب العقلاني مرة أخرى بعد أن خبت ناره في عصره، لكن ما لبث أن خبت شعلته لعدم وجود من يتلقفها منه. فهل لنا أن الآن أنت نتلقفها منه ونتعهدها بالعناية والدراية والزيادة والإفادة لنضعها مع أنصبة المعايير لتنقية تراثنا وتمحيصه مما شابه من اللغط والغلط وعدم المنطقية والعقلاني، أم سندعها تسقط مرة أخرى في بيداء النسيان؟